د . سهيل ادريس

ذكريات مع طه حسين

كنت في حوالي العاشرة من عمري حين قرات للمرة الاولى كتاب « الايام » لطه حسين . وقد عشت اسابيع وشهورا مع ذلك الصبيّ الذي كانه المؤلف ، اعاني ما يعانيه من حزن والم ، او من رضى وفرح ، واسير الى جانبه في عالمه الداكن الظلمة من خارج ، الناصع الاشراق من داخل، واتابعه في مراحله الاولى التي كان وعيه يكتمل فيها بالقدر الذي كتب له ، فيقبل هذا القدر راضيا ، ولكنه يصمّم على النضال حتى يجعله قدرا بصيرا ، يعوّض به عن عاهة العمى التي أصيب بها في طفولته .

وبلغ من تأثير « الايام » في نفسي وفكري اني تمنيت ان أعيش حداثة كحداثة طه حسين ، وان تتاح لي في المستقبل فرصة كتابة قصة هذه الحداثة (١) .. ولست اشك الان في ان قبولي الالتحاق بالمعهد الديني الذي انتسبت اليه ، وانا في الحادية عشرة ، كان مقودا برغبة مكنونة في النفس ان اعيش التجربة التي عاشها ذلك الفتى وان اعاني معاناة حقيقية ظروفها ومؤثراتها . وكنت على وعي مبكر بأن نعمة البصر التي حُرمها صاحب « الايام » ربما اتاحت لي من كنوز الادب والعلم ما لم يكن متاحا له ، فانصرفت اغذّي هذا الوهم بقراءات كثيفة في الادبين العربي والفرنسي ، حتى ان رفاقي في المعهد الديني ما يزالون يذكّرونني بانهم قلّما كانوا يرونني في اوقات الفراغ خارج مكتبة المعهد ..

وكنت اتابع بلهفة كل ما كان يكتبه طه حسين ، واجد فيه حافزا لمزيد من المعرفة اكتسبه ، وعزفت عن الدراسة الدينية الى الادب الذي كنت اميل اليه . وقد بلغ من طموحي اني بدأت ، وانا بعد في الرابعة عشرة ، ترجمة رواية فرنسية اعجبت بها اعجابا عظيما ، هي رواية « مولن الكبير » لالين ـ فورنيه ، وبذلت في ترجمتها طوال عام جهدا مضنيا لم تكن تألك السنّ لتحتمله . حتى اذا فرغت من الترجمة ومن تنقيحها ، تجرأت فأرسلت بالمخطوطة الى طه حسين الذي كان مشرفا آنذاك على اصدار « الكاتب المصري » ومنشورات « دار الكاتب المصري » . وقد اصابني الذهول حين بلغني ان الدكتور طه وافق على نشر الترجمة ، فملأني ذلك اعتزازا وزهوا ، ورحت انتظر بفارغ الصبر الاعلان عن صدور الكتاب ، ولكني فوجئت يوما باحتجاب مجلة « الكاتب المصري » واغلاق فرع دارها الناشرة .

ولم يفتّ ذلك في عضدي ، بل منحني شحنة جديدة من الحماسة لتعميق ثقافتي الادبية . ولعلّ الحلم الذي كان يداعبني في السفر الى فرنسا واعداد اطروحة دكتوراه في الادب والاقبال على مناهل الثقافة الفرنسية ـ لعلّ حلمي هذا انما كان صدى خفيا لرحلة طه حسين الى فرنسا وفوزه بشهادة الدكتوراه فيها .

بل لعلّ الاصل في اعتزامي اصدار مجلة « الاداب » وانا بعد في باريس ، كان املا عندي في ان تحل محلّ مجلة « الكاتب المصري » التي عنيت عناية خاصة بدراسة نظرية الالتزام في الادب ، هذه النظرية التي اتيح لي ان اتعمّقها في العاصمة الفرنسية . واذكر اني كتبت للدكتور طه حسين رسالة ابلغه فيها نيتي في اصدار المجلة واورد له خطوطا عامة من سياستها التحريرية ، فكتب لي مشجعا . والحق انه استجاب ، فيما بعد ، لبضعة

(١) وقد كتبتها بالفعل عام ١٩٥٨ في روايتي الثانية « الخندق الغميق » .

استفتاءات طلبت منه ان يشارك فيها ، فازددت حبا لـه ، وجعلت انتظـر الفرصـة التي تسمح لي بلقائه .

غير اني كنت اتهيّب مواجهة هذا الرجل العظيم الذي ملأ حداثتي بشخصيته وادبه ، وآثرت ان انتظر مناسبةعفوية تجمعني به كنت أظنهـا ستسنح في المؤتمر الاول للادبـاءالعرب الذي عقد في مصيف بيت مري في لبنان عام ١٩٥٤ . ولكن ظني وظنّ كثيرين من الادباء خاب ، حين ارسل الدكتورطه يعتذر عن حضور المؤتمر بسبب موقف غير كريم وقفته منه السفارة اللبنانيـة في القاهرة آنذاك ، كما جاء فـي كتـاب اعتذاره .

وساءني جدا الا القاه ، واسفت لذلك الموقف الذي ربما كـان ناشئا عن لبس او سوء فهم ، فاقترحت على جمعيـة المقاصد الاسلامية ، التي كنت اشرف على لجنة المحاضرات فيها ، توجيه دعوة خاصة الى الدكتور طه لاجراء مناظرة مع الاستاذ رئيف خوري (رحمه الله) . وقد وافقت الجمعية واوفـدتني الى القاهرة لمقابلة عميد الادب العربي .

كان ذلك في اوائل عام ١٩٥٥ . وحين دخلت علـى الدكتور طه في غرفة مكتبه ، كان جسمي يرتعش تهيبـا . وزادتني رهبة الوف المجلّدات التي كانت تكسو جـدران مكتبته ، واشعرتني باني لن ابلغ ، مهمـا بذلت من جهد ، ما كان هذا الرجل الجبّار قد بلغه من ثقافة ومعرفة . وبعدان تحدّثنـا قليـلا ، بحضور سكرتيره فريد شحاتة ، قبل الدعوة الى بيروت واجراء المناظرة مع رئيف خوري فـي موضوع «ايكتب الاديب للعامة ام للخاصة» . وحين استأذنته بالانصراف ، وانا ممتلىء فرحا بقبوله الدعوة ، استوقفنـي قائـلا لسكرتيره :

ـ فريد ، أعد للاستاذ سهيل أمانته القديمة !

فلم افهم قصده ، الى ان استخرج سكـرتيره مغلّفا فتحته والامر ملتبس عليّ ، فعرفت فيه مخطوطة ترجمـة « مولن الكبيـر » ...

قال الدكتور طه وهو يبتسم ابتسامته الهادئة :

ـ انني احتفظ بهـا منذ اكثر مـن عشر سنوات . ولعلّك نسيتها ، او ظننت انهـا ضاعت . لا يا استاذ ، اننـا لا نضيّع جهود الادباء !

شكرته وانا أتمتم بعبارات التأثر ، وخرجت وقـد استطالت في عيني قامته .

كنت حريصا ، بعد ذلك ، على ان اقوم بزيارة طه حسين كلما قصدت القاهرة . وكان يلقاني دائما بالترحيب والمحبة . وقـد توثقت اواصر الصداقة بيننا في احاديث طويلة حضرت بعضها زوجتي . ولما عرف انهـا ترجمت بعض الكتب ،جعل يحدّثنـا بفرنسية صافيـة لا تقلّ اناقـة عـن لغته الام . ثم تعاقدت معه على بعض كتبه ، وكان آخرها « مذكـرات طه حسين » التي يتمّ فيهـا جزئي « الايام » .

لقيت الدكتور طه في بعض المؤتمرات الادبية ، ولقيته اكثر من مـرة على متن الباخرة التي كانت تقلّه صيف كل عام الى اوروبا وترسـو ساعات في مرفأ بيروت . وكان لا يفتـأ يسألني عن « الاصدقاء اللبنانيين » الذين لم يكن ينسـى واحدا منهم ، ولو لقيه مرة واحدة ، بضع دقائق . وقد تأثر تأثـرا شديدا لوفاة المرحوم رئيف خوري حين ابلغته اياه ، وذكّرني بمناظرته معه قائلا ان اساسها غير صحيح اصلا ،لان الاديب يكتب للخاصة والعامة في وقت واحد ، وانه انمـا قبل الاشتراك فيهـا لانه كـان يرغب في زيارة لبنان الذي يحبه ، فأجبته باني كنت انا كذلك اعي ما في موضوع المناظرة من تكلف ، ولكننا كنـا في مثل حرصه على ان يلقى المعجبين الكثيريـن به في بلدنـا .

وكان آخر لقاء لي به منذ عام تقريبا . اتصلت بمنزلـه فواعدني سكرتيره الجديد بعد ظهر يوم مـن ايـام شباط (فبراير) . غير ان الذي استقبلني كان صهره الدكتور محمد حسن الزيات الذي ابلغني ان الدكتور طه كان متعبا ذلـك اليوم ، وانه يفضل ان يستقبلني في اليوم التالي .

في هذا اللقاء الاخير ، كان الدكتور طه يتكلم بجهـد ومشقة وقد اكتسى وجهه صفرة عجيبة . ولاحظت ان تلـك الذاكرة العظيمـة التي كانت احدى مزاياه الكبيرة ، قـد بدات تخونه ، فلم اشأ ان اطيل زيارتي واكلفه مشقةالحديث، فأستأذنته وانا اشعـر ان هذا الانسان الذي قضى حياتـه كلهـا في النضال الفكري والجسدي يستسلم اخيرا للقدر .

ولقد حرمتني حرب تشرين ان امشي مع الوف المحبين والمعجبين ، وراء نعش هذا الاديب العظيم والانسان النبيل، هذا الذي ملأ حياة جيلنا ، منذ نعومة اظفاره ، بحسّ الكفاح وروح الطمـوح .

بيروت